

العنوان:	العطاء الطبي لأهل الذمة بالأندلس من خلال بعض كتب تراجم الأطباء ما بين القرنين 4 - 7 هـ. / 10 - 13 م.
المصدر:	مجلة البحث التاريخي
الناشر:	الجمعية المغربية للبحث التاريخي
المؤلف الرئيسي:	بن الحسن، مبارك لمين
المجلد/العدد:	ع11، 10
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2014
الصفحات:	60 - 43
رقم MD:	873304
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	HumanIndex
مواضيع:	التاريخ الإسلامي، أهل الذمة، بلاد الأندلس، كتب تراجم الأطباء، الإنتاج الطبي
رابط:	https://search.mandumah.com/Record/873304

العطاء الطبي لأهل الذمة بالأندلس من خلال بعض كتب تراجم الأطباء (ما بين القرنين 4-7هـ / 10-13م)

لمين مبارك*

تهديد

تعتبر التجربة الحضارية الأندلسية امتدادا للحضارة الإسلامية الممتدة عبر المجال الجغرافي الذي خضع لسيادة الإسلام. فقد شكلت تلك التجربة عقدا انتظمت فيه جميع العبقريات من أعراق مختلفة ومن أديان متباينة، واستوعبت تلك التجربة أصنافا من العلوم والمعارف فتمثلتها بطابعها الخاص.

وأبرز عناصر تلك العبقريات: العنصر الإسلامي، والعنصر المسيحي، والعنصر اليهودي. وشكل الطب من أهم أصناف تلك العلوم، إذ بلغ شأوا كبيرا من التقدم والتألق، وشكل أرضية للعطاء وللتواصل بين هذه العناصر في تسامح رائع وتعايش نادر؛ فحق للحضارة الإسلامية أن تفاخر بهذا التنوع وبهذه الوحدة الحضارات التي تعصبت لدينها أو لعرقها، ومن هنا يستمد عنوان هذا الموضوع أحد دواعي مشروعيته.

ولئن أدلى باحثون بدلائهم في موضوع الطب والأطباء غير المسلمين بالأندلس، فإن الموضوع، في تقديرنا، ما يزال في أمس الحاجة إلى دراسات وبحوث تميظ اللثام عن زوايا خفية منه، كما أضحت الحاجة ملحة إلى تجديد منهجي لمقاربة الموضوع.

وقد انتقينا على مستوى المادة المصدرية ثلاثة مصنفات أرضية للبحث وهي: "طبقات الأطباء والحكماء" لابن جلجل (332هـ / 943م-383هـ / 994م)، و"طبقات الأمم" لصاعد الأندلسي (420هـ / 1029م-462هـ / 1070م)، و"عيون الأنباء في طبقات الأطباء" لابن أبي أصيبعة (600هـ / 1204م-668هـ / 1269م).

أما على مستوى المنهج، فقد اعتمدنا المقاربة الكمية، وتنبني على الجرد الاستكشافي لمحتوى المصادر الثلاثة قصد الوقوف على معطيات إحصائية تتم ترجمتها إلى جداول وأرقام

* كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهر، أكادير.

تكون أرضية بدورها لاستنتاجات وخلاصات عن الموضوع. إن المقاربة الكمية، مقارنة بالمنهج التقليدية في معالجة كتب التراجم، لها مميزات ثلاث¹:

أولها: إن الأرقام والمبيانات تعطي تدقيقاً أكبر، أو على الأقل تسمح بأخذ صورة أحسن عن التوجهات التي تشير إليها كتب التراجم.

ثانيها: إن المنهج الكمي يسمح بتحويل الضمني إلى الصريح، بإظهار نتائج مجهولة لدى الباحث.

ثالثها: إن المنهج الكمي يفند أحياناً بعض الأحكام المسلّم بها لدى الباحثين.

إذا كانت للمقاربة الكمية هذه الإيجابيات، فإن ذلك لا يعني البتة التسليم لها بالكمال والنجاعة التامّين في معالجة الموضوع، بل إنها لا تعدو أن تكون سلاحاً ضمن أسلحة المناهج، ومن ثمة فعندما نأخذ بالمنهج الكمي فإننا نستحضر حدوده، ولا نطلب منه تقديم أكثر مما يستطيع².

تأسيساً على ما سبق، ما موقع الأطباء الذميين في الخريطة الطبية للأندلس؟ وما هي خصائص توزيعهم على مستويي الزمان والمكان؟ وما مميزات بنياتهم على صعيد الديانة والتخصصات العلمية؟ وما هي أبرز مجالات عطائهم على صعيد خدمة الطب الأندلسي؟ وما طبيعة العلاقة بينهم وبين المسلمين حكماً وحكاماً؟

1- موقع الأطباء الذميين في الخريطة الطبية للأندلس

يقصد باسم "الذميين" أو "أهل الذمة" المواطنون من غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، و"الذمة" كلمة معناها العهد والأمان، وسموا بذلك لأن لهم عهد الله وعهد رسوله وعهد جماعة المسلمين، للعيش في حماية الإسلام وفي كنف المجتمع الإسلامي، لهم حقوق وعليهم واجبات³؛ ومن جملة الحقوق المكفولة لأهل الذمة حرية العمل والكسب، وممارسة ما يختارون من المهن الحرة⁴، ومن ثمة انخرط أهل الذمة عبر أرجاء دار الإسلام، ومنها الأندلس، في مباشرة أنشطة حرة، ومزاولة وظائف علمية ومن جملتها الطب. فما هو حجم أطباء أهل الذمة بين زملائهم المسلمين؟

أفضى الجرد الإستكشافي لمحتوى المصادر الثلاثة المعتمدة إلى أن نسبة إسهام أهل الذمة في الخريطة الطبية الأندلسية لم تتجاوز 17,9%⁵ من مجموع أطباء الأندلس. وعليه،

1- محمد الشريف، «ملاحظات منهجية لقراءة جديدة لكتب التراجم المغربية الأندلسية»، ضمن التراث المغربي الأندلسي، جامعة عبد المالك السعدي، منشورات كلية الآداب، تطوان، ص. 514-515.

2- نفسه، ص. 518.

3- يوسف القرضاوي، غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، دار المعرفة، الدار البيضاء، ط. 1، 1408هـ/ 1988م، ص. 7.

4- نفسه، ص. 21.

5- انظر الجدولين رقم 1 و2 بالملحق.

فإن الحضور الذمي في الطب الأندلسي لا يعني البتة عجز الجسم الإسلامي عن تكوين الأطباء كما وكيفا.

فعلى المستوى الكمي، تترجم الإحصائيات أهمية الحضور الإسلامي في المجال الطبي بحوالي 82 % من مجموع أطباء الأندلس. أما على المستوى الكيفي، فقد برزت عبقریات إسلامية أندلسية في مجالي الطب والصيدلة، بدءا بالفترة الأموية، ومرورا بمرحلة الطوائف، وانتهاء بالعصرين المرابطي والموحدي¹.

هكذا، فإن الحضور الذمي في الساحة الطبية مرده إلى حقوق مكتسبة لغير المسلمين أقرها الإسلام، وترجمتها الحضارة الإسلامية على أرض الواقع، ومن ثمة برز أعلام الطب الذميين موزعين عبر الزمان والمكان بالأندلس.

2- توزيع الأطباء الذميين بالأندلس

2-1- التوزيع الزمني

لا تسعف المادة المصدرية المعتمدة بتواريخ ميلاد أعلام الطب ووفياتهم، مما يحول دون التحديد الدقيق للفترة الزمنية التي عاش خلالها كل عَلم، غير أن هذه المصادر لم تغفل في معظم الحالات عن الإشارة إلى عهود الحكام التي تزامنت مع العطاء العلمي للأطباء الذميين.

تأسيسا على هذا المعطى، تفيد المعطيات الإحصائية² أن أزيد من 68 % من هؤلاء الأطباء عاشوا خلال فترة الحكم الأموي بالأندلس وتحديدًا عهود: محمد بن عبد الرحمن الأوسط (238هـ/853م-273هـ/887م)، والأمير عبد الله بن محمد (275هـ/889م-300هـ/913م)، وعبد الرحمن الناصر (300هـ/913م-350هـ/961م)، والحكم المستنصر (350هـ/961م-366هـ/977م).

فهل مرد ذلك إلى غياب الطاقات الطبية المسلمة في الأندلس خلال هذه الفترة، مما فسح المجال لبروز أطباء أهل الذمة؟ أم أن عصر الحكم الأموي وفر مناخا من الحرية لأهل الذمة، وعرف استقرارا سياسيا وازدهارا علميا خلال عهود حكم الأمراء والخلفاء المذكورين؟

إن الفرضية الأولى لا تصمد أمام المعطيات الإحصائية التي تقدمها المصادر المعتمدة، بدءا بطبقات ابن جلجل المؤلفة سنة 377هـ/988م، ومرورا بطبقات صاعد المصنّف خلال القرن الهجري الخامس، واستدركت على ابن جلجل، وانتهاء بطبقات ابن أبي أصيبعة الذي

1- عن عباقرة الطب المسلمين بالأندلس، انظر: سليمان ابن جلجل، طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق، فؤاد السيد، مؤسسة الرسالة، ط.

2، بيروت، 1405هـ/1985م، ص. 93-116. صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، تحقيق، حياة بوعلوان، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط. 1، 1985، ص. 161-200. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، الجزء الثالث، دار الثقافة، بيروت، 1399هـ/

1979م، ص. 62-134.

2- انظر الجدول رقم 3 بالملحق.

استدرك على سابقه، فالمعطيات الإحصائية¹ للمصادر الثلاثة تجمع على الأهمية العددية للعنصر الإسلامي، خلال عصر الحكم الأموي، مع التواضع العددي للذمين.

أما الفرضية الثانية، فيرجح أن تسهم في ارتفاع نسبة أطباء أهل الذمة خلال فترة الحكم الأموي، إذا استحضرننا الاستقرار السياسي الذي نعمت به الأندلس، خاصة في فترة حكم عبد الرحمن الناصر وابنه المستنصر، والتشجيع الذي حظي به العلماء خلال هذه المدة.

من جهة أخرى، فإن ضعف الحكم الأموي بعد عهد الحكم المستنصر ثم انهياره النهائي سنة 422هـ/ 1031م، عرّض الأندلس للفتنة الكبرى، وتلا ذلك الصراعات بين الممالك الطائفية، ونشاط حركة الاسترداد المسيحية، ومن ثمة جاء التدخل المرابطي لإنقاذ الأندلس؛ فكل هذه التحولات يرجح أن تسهم في إجلاء العلماء، مسلمين وذميين، عن الأندلس والتضييق عليهم، وهذا ما تفصح عنه رحلة الطبيب اليهودي أبو جعفر يوسف بن أحمد بن حسداي إلى مصر².

هكذا، فإن التوزيع الزمني لأطباء أهل الذمة تميز بالتفاوت الكبير بين مختلف عهود الحكم بالأندلس، فما هي خصائص توزيعهم على مستوى المكان؟

2-2- التوزيع المكاني

يتضح من معطيات الجدول³ أن قرطبة تتقدم باقي الحواضر الأندلسية التي استوعبت أطباء أهل الذمة، ولا غرو أن تأتي هذه الحاضرة في الصدارة، فمنذ افتتاح الجزيرة كانت قرطبة «منتهى الغاية، ومركز الراية، وأم القرى (...)، ووطن أولي العلم والنهي»⁴، فهي مركز الحكم الأموي الذي عاصر معظم أطباء أهل الذمة فترة سيادته، وخدموا الأمراء والخلفاء بالطب.

وتأتي سرقسطة وطليطلة على التوالي بعد قرطبة في التوزيع الجغرافي للأطباء، ويمكن تعليل هذه المكانة بتشجيع بعض البلاطات الطائفية لعلوم الأوائل خلال القرن الهجري الخامس؛ فقد غلب على بلاط بني هود في سرقسطة الاهتمام العميق بالعلوم التجريبية، بينما اشتمل بلاط بني ذي النون في طليطلة على نابغين في مجال العلوم التطبيقية كالرياضيات والطب والفلك والزراعة⁵؛ فقد خدم الطبيب اليهودي "ابن بكلاش" الأمير المستعين بالله أحمد بن المؤتمن بن هود بالطب في سرقسطة، بينما احتضن البلاط العامري

1- انظر الجدول رقم 1 بالملحق.

2- ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج3، ص. 82.

3- انظر الجدول رقم 4.

4- ابن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الأول، المجلد الأول، تحقيق، إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، ليبيا- تونس، 1395هـ/ 1975م، ص. 33.

5- أحمد المقرئ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، الجزء الرابع، تحقيق يوسف البقاعي، دار الفكر، بيروت، ط. 1، 1406هـ/ 1986م، ص. 185. أنخيل بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة، حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1955، ص. 450 فما بعد.

بدانية الطبيب إسحاق بن قسطار (ت. 448هـ / 1056م) الذي خدم مجاهدا العامري وابنه إقبال الدولة.

هكذا، فإن التوزيع الزمني لأطباء أهل الذمة في الأندلس تميز باستيعاب فترة الحكم الأموي لمعظمهم، أما توزيعهم الجغرافي فطبعه استحواذ قرطبة على أغلبهم. فماذا عن بنيات هؤلاء الأطباء؟

3- بنيات الأطباء الذميين بالأندلس

بنية الأطباء عبارة عن ترتيب عددي لهؤلاء الأطباء، ويكون معيار الترتيب ميزة أو خاصية من خصائص هذه الفئة، وهي في هذه الدراسة: الديانة والتخصص العلمي.

1-3- بنية الأطباء على مستوى الديانة

يتضح من المعطيات الإحصائية¹ أن البنية الدينية لأطباء أهل الذمة تتميز بالصدارة لأطباء اليهود بنسبة 62,5 %، ويأتي بعدهم المسيحيون بنسبة 37,5 %.

2-3- بنية التخصصات العلمية

تعددت ألوان الطيف العلمي التي توزعت أطباء أهل الذمة في الأندلس، إلا أن هذا التعدد صاحبه تباين واضح لتوزيعهم على مختلف التخصصات العلمية² التي يمكن اختزالها في ثلاثة حقول معرفية كبرى، وهي على التوالي حسب أهمية عدد المنتمين إليها:

أولاً: علوم الأوائل

في إطار التصنيف الخلدوني للعلوم، فإن علوم الأوائل تسمى أيضاً بالعلوم العقلية أو علوم الفلسفة والحكمة³، وهي غير مختصة بملة معينة، «بل يوجد النظر فيها لأهل الملل كلهم ويستوون في مداركها ومباحثها، وهي موجودة في النوع الإنساني منذ كان عمران الخليفة»⁴.

هكذا، فقد برزت العديد من فعاليات أهل الذمة في ساحة علوم الأوائل بالأندلس، فإسحاق بن قسطار اليهودي (ت. 448هـ / 1056م) «كان بصيراً بأصول الطب مشاركاً في علم

1- انظر الجدولين رقم 5 و6.

2- انظر الجدولين رقم 7 و8 بالملحق.

3- تضم أصنافاً عديدة من التخصصات، كعلم المنطق، والعلم الطبيعي، والعلم الإلهي، والعلم الناظر في المقادير كالفلسفة والموسيقى والهيئة. عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، الجزء الثالث، تحقيق، علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ط. 3، 1981م، ص. 1119 فما بعد.

4- نفسه، الصفحة نفسها.

المنطق، مشرفاً على آراء الفلاسفة»¹. أما مناحيم بن الفوال اليهودي، من سكان سرقسطة، فكان «متقدماً في صناعة الطب، متمرفاً مع ذلك في علم المنطق وسائر علوم الفلسفة»².

ويأتي الاهتمام بالطب في صدارة علوم الأوائل عند أهل الذمة في الأندلس، ولم تكن هذه الظاهرة خاصة بهذا الصقع من دار الإسلام، فقد ذكر أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسي (ت. 520هـ / 1126م) عند رحلته إلى مصر، أن «أكثر أطبائها المبرزين نصارى ويهود»³، وفي ذلك قال أحدهم مفخراً المسلمين، ومتحدياً لهم⁴:

أَقُولُ لِلْمُسْلِمِينَ طَرّاً تَبْغُونَ فِي طَبْنَا اشْتَهَارَا
هَيْهَاتَ حَاوَلْتُمْ مُحَالَا كُونُوا إِذَا هُوداً أَوْ نَصَارَى

إلى جانب علوم الأوائل، تطلعت همم بعض الأطباء إلى إحكام علوم اللسان.

ثانياً: علوم اللسان

تأتي علوم اللسان في الرتبة الثانية بعد علوم الأوائل بنسبة 10 % في بنية التخصصات العلمية⁵ لأطباء أهل الذمة في الأندلس، وتتميز علوم اللسان بمكانتها الخاصة بين باقي التخصصات العلمية؛ فهي مطية لتعلم باقي العلوم وتعليمها، باعتبارها «آلات الغير»⁶.

من هنا، اتجهت همة بعض أطباء أهل الذمة للعناية بهذه العلوم، فمروان بن جناح اليهودي «من أهل العناية بصناعة الطب والتوسع في علم لسان العرب واليهود»⁷. أما أبو الفضل حسداي بن يوسف، «فأحكم علم لسان العرب، ونال حظاً جزيلاً من صناعة الشعر والبلاغة»⁸.

يتضح مما سلف أن أطباء أهل الذمة، خاصة اليهود منهم، زاجوا بين الاهتمام باللسان العبري وإحكام اللسان العربي؛ فالأول مكنهم من التواصل مع التراث العبري في مجال شريعة اليهود وتاريخهم، أما الثاني فأضحى اللغة الرسمية لتعلم العلوم وتعليمها وإحكام التخصصات العلمية وممارستها، ومنها الطب خلال العصر الوسيط⁹.

1- صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، ص. 204. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج3، ص. 82-83.

2- ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج3، ص. 81.

3- أمية بن عبد العزيز أبو الصلت، الرسالة المصرية، تحقيق، عبد السلام هارون، نواذر المخطوطات، مطبعة الحلبي وأولاده، مصر، ط. 2، 1392هـ / 1972م، ص. 34.

4- نفسه، ص. 35.

5- انظر الجدولين رقم 7 و8.

6- علي ابن حزم، رسالة مراتب العلوم، رسائل ابن حزم، الجزء الرابع، تحقيق، إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط. 1، 1981، ص. 82.

7- صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، ص. 204. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج3، ص. 81.

8- ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج3، ص. 82.

9- أ. كاترين، أطباء بلا حدود، الطب في العالم المتوسطي خلال العصر الوسيط، مركز دراسات الأندلس وحوار الحضارات، 2002. www.andalusite.ma تاريخ التصفح: دجنبر 2010.

ثالثاً: علوم الشريعة

تأتي علوم الشريعة في الرتبة الأخيرة من اهتمام أطباء أهل الذمة في الأندلس بنسبة 07,5 % من مجموع التخصصات العلمية¹، فلم تورد المصادر المعتمدة سوى مشاركة عَلمين في هذا الحقل العلمي؛ ويتعلق الأمر بإسحاق بن قسطار (ت. 448هـ / 1056م)، الذي كان «بارعاً في فقه اليهود، حبراً من أحبارهم»². أما حسداي بن إسحاق (ت. 330هـ / 942م)، فكان «من أحبار اليهود، متقدماً في علم شريعتهم»³. وقد استغل هذا الطبيب الحظوة التي نالها لدى الحُكم المستنصر، والامتيازات المكفولة له؛ لخدمة دين قومه بالأندلس وشريعتهم؛ فعمد إلى استجلاب «ما شاء من تأليف اليهود بالمشرق»⁴، مما مكن أتباع دينه من معرفة فقه دينهم، وسنين تاريخهم، ومواقيت أعيادهم، ومن ثمة استغنوا عن تجشم الكلفة لشد الرحال إلى يهود بغداد، وبذلك عد ابن أبي أصيبعة⁵ حسداي ابن إسحاق أول من فتح لأهل الأندلس من اليهود باب علمهم من الفقه والتاريخ.

نخلص إذن إلى أن بنية التخصصات العلمية لأطباء أهل الذمة تميزت بالمولسوعية، مع أهمية تخصصهم في علوم الأوائل وخاصة الطب، مما فسح المجال أمامهم للعطاء العلمي في مجالات مختلفة ذات صلة بالطب.

4- مجالات العطاء العلمي للأطباء الذميين

تنوعت المجالات العلمية التي انخرط فيها الأطباء الذميون بالأندلس، وتميزت هذه المجالات بتكاملها وتضافرها لخدمة الطب، أما توزيع الأطباء عبرها فيتصف بالتفاوت الكبير كما يتضح من المعطيات الإحصائية⁶ المستخلصة من المصادر، وهي حسب أهميتها كالآتي:

4-1- التطبيق

شكل التطبيق 55 % من الاهتمامات العلمية لأطباء أهل الذمة، وخدموا خاصة القوم وعامتهم بصناعة الطب.

أولاً : تطبيق الحكام

اعتمد حكام الأندلس معيار الكفاءة لانتقاء أطباء بلاطاتهم قصد توفير الخدمات الطبية الراقية لأنفسهم ولأسرهم، ولقادة جندهم ومحيطهم الاجتماعي، ومن ثمة استقبلت

1- انظر الجدولين رقم 7 و8 بالملحق.

2- ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج3، ص. 82.

3- نفسه، الصفحة نفسها.

4- نفسه.

5- نفسه.

6- انظر الجدول رقم 9 بالملحق.

قصورهم أطباء مسلمين وغير مسلمين؛ فكان يحيى بن إسحاق، كما وصفه ابن جلجل¹، طبيباً نبيلاً حاذقاً، خدم الناصر عبد الرحمن (300-350هـ / 913-961م)، وله وصفة طبية محفوظة في علاج الناصر. أما إسحاق بن قسطار اليهودي، فخدم بالطب مجاهدا العامري وابنه إقبال الدولة².

واستفاد بلاط بني هود في سرقسطة من خدمات الطبيب اليهودي ابن بـكلارش، الذي عده ابن أبي أصيبعة³ من أكابر علماء الأندلس في صناعة الطب.

لم يقتصر تطبيب أهل الذمة على حكام الأندلس، بل شدوا الرحال إلى خارج الجزيرة، حيث استقبلتهم قصور الحكام بإفريقية ومصر؛ فقد خدم أحد الأطباء الأندلسيين اليهود بالقيروان الأمير زيادة الله بن الأغلب الثالث (ت. 290هـ / 903م-296هـ / 909م)⁴. أما أبو جعفر يوسف بن أحمد بن حسداي، فسافر إلى الديار المصرية حيث خدم بالطب الوزير الفاطمي المأمون أبي شجاع (515هـ / 1124م-519هـ / 1125م)، وكانت لهذا الوزير همة عالية في طلب العلوم، فكلف الطبيب الأندلسي بشرح كتب أبقراط⁵.

موازية مع الخدمات الطبية المقدمة لأهل الأندلس وإفريقية ومصر، لم يحرم الأطباء الذميون عامة الشعب الأندلسي من خبراتهم العلاجية.

ثانيا : تطبيب العامة

إن القراءة المتأنية في متون المادة المصدرية التي أرخت لأعلام أهل الذمة في المجال الطبي، توقفنا على صنف من هؤلاء الأطباء الذين حولوا بيوتهم إلى عيادات لاستقبال المرضى من عامة الشعب؛ فابن ملوكة النصراني، الذي عاش أواخر القرن الثالث وبداية الرابع الهجريين، «كان على باب داره ثلاثون كرسيًا لقعود الناس»⁶، مما يترجم إقبال الزبناء على عيادته، وهذا الإقبال يمكن تفسيره ببراعة هذا الطبيب وحذقه لمهنته، فكان «يصنع بيده، ويفصد العروق»⁷.

يعطينا هذا الوضع صورة واضحة لما كان عليه أطباء الأندلس من احترام تام للناس، والتزام عميق بالتنظيم في أداء عملهم. ويحتاج التطبيب إلى صفات علاجية بالأدوية، لذلك اهتم بعض هؤلاء الأطباء بإحكام الصيدلة.

1- سليمان ابن جلجل، طبقات الأطباء، ص. 100-101.

2- ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج3، ص. 81.

3- نفسه، ج3، ص. 85.

4- سليمان ابن جلجل، طبقات الأطباء، ص. 85.

5- ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج3، ص. 82.

6- سليمان ابن جلجل، طبقات الأطباء، ص. 97.

7- المصدر نفسه والصفحة نفسها.

4-2- الصيدلة

تعتبر الصيدلة قرينة الطب، فبعد تشخيص الطبيب للمرض ووصفه الدواء، يحتاج المريض إلى خدمات الصيدلي. وقد جمع بعض أطباء الفترة الوسيطة، ومنهم الأندلسيون، بين تخصصي الطب والصيدلة، فكان جواد الطبيب النصراني من الحاذقين في صناعة الأدوية الشجارية، وله اللعوق¹ المنسوب إليه، والشرابات والباسونات² المنسوبة إليه³.

إلى جانب صناعة الأدوية، نهض أطباء أهل الذمة بالتأليف في المجال الصيدلي، فقد ألف ابن بكلاش اليهودي كتاب "المجدول في الأدوية المفردة"، ووضعه مجدولاً⁴. أما مروان بن نجاح اليهودي، فقد ضمن "كتاب التلخيص" ترجمة الأدوية المفردة⁵.

موازة مع التأليف في المجال الصيدلي، انكب أطباء أهل الذمة على التصنيف في كل ما يخدم صناعة الطب.

4-3- التأليف

اتجهت همة العديد من أطباء أهل الذمة إلى التأليف في المجال الطبي والصيدلي، غير مكتفين بالقعود على مؤائد مؤلفات السابقين. ويوضح الجدول التالي أسماء المؤلفين والمؤلفات التي أغنت المكتبة الطبية الأندلسية:

اسم المؤلف	عنوان المؤلف	المصدر
- يحيى بن إسحاق	- كتاب الإبرسيم (5 أسفار). - نادر محفوظ في علاج الناصر.	عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج3، 68.
- منجم بن الفوال	- كتاب كنز المقل (سؤال وجواب).	نفسه، ج3، 81.
- مروان بن جناح	- كتاب التلخيص (ترجمة الأدوية المفردة).	نفسه، ج3، 81.
- أبو جعفر يوسف بن أحمد بن حسداي	- الشرح المأموني لكتاب الإيمان لأبقراط. - شرح المقال الأول من كتاب الفصول لأبقراط. - تعاليق بخطه. - فوائد مستخرجة من شرح علي بن رضوان لكتاب جالينوس. - كتاب الإجمال في المنطق. - شرح كتاب الإجمال.	نفسه، ج3، 83-84.
- ابن بكلاش	- كتاب المجدول في الأدوية المفردة.	نفسه، ج3، 85.

1- اللعوق: دواء مشكل من أدوية مختلفة، ممزوجة بسكر أو عسل أو غيره، واشتهرت كلمة "لعوق" عند أطباء العصر الوسيط، ودخلت في اللغات الأوروبية باسم "Look". سليمان ابن جلجل، طبقات الأطباء، ص. 94، هامش 2.

2- البسون: سم مركب، وينسب إلى صانعه، مثل بسون جواد. نفسه، هامش 3.

3- سليمان ابن جلجل، طبقات الأطباء، ص. 93.

4- ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج3، ص. 85.

5- نفسه، ج3، ص. 81.

يتضح من معطيات الجدول أن التأليف الطبي شمل، إلى جانب وضع مصنفات طبية، العمل على شرح التراث اليوناني، مما استدعى ترجمته إلى اللغة العربية.

4-4- الترجمة

أسهم أهل الذمة في ترجمة التراث الطبي اليوناني إلى العربية، ويعد كتاب في النباتات الطبية لديسقوريدس¹ أحد مصنفات ذلك التراث الذي كان له أثر في دفع عجلة الدراسات الطبية وريقها، ويعد الطبيب حسداي بن شبروط اليهودي من أبرز الأطباء الذين أسهموا في هذا المشروع العلمي.

وعندما نصل إلى القرن الهجري الرابع/ الميلادي العاشر، أصبحت كتابات أبقرات وجالينوس وافرة جدا باللغة العربية التي أضحت لغة كتابة أعمال وأبحاث الأطباء مسلمين وغير مسلمين².

صفوة القول، إن الأطباء الذميين في الأندلس نبغوا في مجالات مختلفة مكنتهم من الإحتكاك بمواطنيهم المسلمين، فما هي طبيعة علاقتهم بالمسلمين؟

5- التعاون الإسلامي الذمي بالأندلس لخدمة الطب

1-5- التعاون مع الحكام

احتضنت قصور الأمراء والخلفاء بالأندلس العديد من الطاقات العلمية الممتنية إلى أهل الذمة، ويعترف باحثون غربيون³ بأن حكام الأندلس اعتمدوا معيار الكفاءة للانخراط في سلك أطباء القصور، بغض النظر عن الدين والعرق، ولم يكن ذلك منة من الحكام، بل الفضل يرجع إلى القواعد السامية التي قامت عليها الحضارة الإسلامية بتأصيل الإسلام منهج التعامل مع غير المسلمين في داره.

وقد تجاوزت ثقة حكام المسلمين بأهل الذمة المجال الطبي لتعانق المجال السياسي بإسناد المناصب السامية، والخطط الحساسة لأطباء أهل الذمة؛ فقد استوزر عبد الرحمن الناصر يحيى بن قسطار، وولاه الولايات والعمالات، وفي هذا الإطار تولى ابن قسطار قيادة بطليوس مدة من الزمن⁴. أما حسداي بن شبروط، فوصفه ابن حيان بـ«وحيد العصر الذي لا يعدل به خادم ملك، في الأدب وسعة الحيلة ولطف المدخل وحسن الولوج»⁵. ويعد حسداي مترجما للخليفة الناصر، ومديرا لإدارته وجمارك المملكة، كما تولى مهام ديبلوماسية، باستقبال

1- ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج3، ص. 75-76.

2- أ. كاترين، أطباء بلا حدود، www.andalusite.com.

3- أ. كاترين، مرجع سابق، www.andalusite.ma.

4- صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، ص. 187. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج3، ص. 68.

5- ابن حيان القرطبي، المقتبس، الجزء الخامس، نشر، ب. سالميا، المعهد الإسباني للثقافة، مدريد، كلية الآداب، الرباط، 1979، ص. 366.

السفراء الطارئین علی قرطبة، وبالسفر إلى الخارج في سفارات خطرة لتمتين العلاقات مع الدول الأجنبية المسلمة، وإقرار السلم مع الإمارات المحاربة¹.

2-5- التعاون مع الحكماء المسلمين

استوعب الفضاء الطبي الأندلسي ألوان الطيف العقدي الذي تزخر به الخريطة الدينية للأندلس، وشكل هذا الفضاء إطارا للتعاون خدمة للطب، وساده جو من التقدير المتبادل بين المسلمين والذميّين. فما هي أوجه ذلك التعاون؟ وما هي مظاهر هذا التقدير؟

5-2-1- أوجه التعاون بين الأطباء المسلمين والذميّين

أولا- الإسهام في الترجمة

بعث الإمبراطور البيزنطي "أرمانوس" إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر سنة 337هـ/ 942م بهدايا نفيسة، ومن جملتها كتاب "ديسقوريدس" في النباتات الطبية. ولم يكن لدى الخليفة من يجيد اللغة اليونانية حتى بعث الإمبراطور، بطلب من الناصر، من يجيد هذه اللغة؛ ويتعلق الأمر براهب يدعى "نقولا" سنة 340هـ/ 951م².

يبدو أن الشأن العلمي وجد موقعه في الحركة الديبلوماسية بين القسطنطينية وقرطبة، وتجلّى ذلك في هذه الجهود الحثيثة لنقل هذا المصدر الطبي النفيس من اليونانية إلى العربية.

وقد انخرط أطباء الأندلس في هذا المشروع العلمي، ومنهم اليهودي حسداي بن شبروط، ومن المسلمين: محمد الشجار، وأبو عثمان الجزار، ومحمد بن سعيد، وأبو عبد الله الصقلي وكان يجيد اليونانية، عارفا بخواص الأدوية³.

هكذا، فقد احتضن الفضاء الطبي الأندلسي في هذا الإنجاز العلمي أطرا إسلامية، ويهودية، ومسيحية، كما أسهمت الديبلوماسية الإسلامية والمسيحية في تذليل الصعاب لنقل التراث الطبي الإغريقي من اليونانية إلى العربية التي أصبحت لها الريادة في المجال العلمي عموما والطبي خصوصا.

إلى جانب التعاون بين الأطباء المسلمين والذميّين في مجال الترجمة، تضافرت جهودهم في إطار مجلس الأطباء.

1- أحمد شحلان، التراث العبري اليهودي في الغرب الإسلامي: التسامح الحق، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دار أبي رقراق للطباعة، الرباط، ط. 1، 2006، ص. 21.

2- ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج3، ص. 75-77. سعد البشري، الحياة العلمية في عصر الخلافة في الأندلس، جامعة أم القرى، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة، 1417هـ/ 1997م، ص. 323-324.

3- سليمان ابن جليل، طبقات الأطباء، ص. 99.

ثانيا- مجلس الأطباء

كان مجلس الأطباء يُعقد لإبداء الرأي في علاج الحالات المرضية المعقدة، ويجتمع هذا المجلس عند تعرض الخليفة أو أحد أقربائه لمرض، وفي هذا الإطار أصيب ابن الوزير عبد الله بن بدر بقروح شملت بدنه كله، ومن ثمة جمع هذا الوزير لفيفا من الأطباء، فأبدى كل واحد رأيه في تلك القروح¹.

نخلص إذن إلى أن التعاون الذمي الإسلامي في المجال الطبي الأندلسي تجسد في الترجمة ومجلس الأطباء. ومما ميز هذا التعاون، سيادة الاحترام والتقدير بين هؤلاء الأطباء.

5-2-2- مظاهر التقدير والاحترام

أضفى المناخ الحضاري الإسلامي جوا من الاحترام والتقدير من قبل الحكماء المسلمين تجاه زملائهم الذميين، فهذا الطبيب ابن جلجل المسلم يصف إسحاق الطبيب المسيحي بأنه كان « مجربا، تحكى له منافع عظيمة، وآثار عجيبة، وتَحَنُّك فاق به جميع أهل دهره »². أما صاعد الأندلسي، فأثنى على الطبيب إسحاق بن قسطار بقوله: « وكان حميد المذهب، جميل الأخلاق، جالسته كثيرا فما رأيت يهوديا مثله في رجاحته وصدقته وكمال مروءته »³. ووصف أبا الفضل حسداي بن يوسف الإسرائيلي بكونه « من بيت شرف اليهود بالأندلس من ولد موسى النبي عليه السلام »⁴.

إلى جانب إشادة صاعد بأصل حسداي ومعدنه، نوه بمستواه العلمي؛ فقد « عني بالعلوم على مراتبها، وتناول المعارف من طرقها (...)، وقرس بطرق البحث والنظر »⁵.

إضافة إلى تنويه علماء المسلمين وحكمائهم بأطباء أهل الذمة، نتحفنا المصادر الأندلسية بصور من اللقاء العلمي بين الطرفين؛ فأبو علي بن حزم (ت. 456هـ/ 1064هـ) كان يجالس إسماعيل بن يونس الطبيب الإسرائيلي في مكانه بألمرية⁶. وقد يشمل اللقاء العلمي بين الجانبين مجلس الدرس للاستفادة والإفادة⁷.

نخلص إذن إلى أن علاقة أطباء أهل الذمة بالمسلمين، حكاما وحكماء، تميزت بالثقة والتعاون لخدمة التخصص، وباحترام المسلمين لأهل ذمتهم، بالتنويه بمكانتهم العلمية، وبالإشادة بمكارمهم الخلقية، انسجاما مع روح الحضارة الإسلامية⁸.

1- ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج3، ص. 66.

2- سليمان ابن جلجل، طبقات الأطباء، ص. 97.

3- صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، ص. 204.

4- نفسه، ص. 205.

5- نفسه، الصفحة نفسها.

6- ابن حزم، طوق الحمامة في الألفة والألاف، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، 1959، ص. 19. أحمد شحلان، التراث العبري، ص. 89.

7- أحمد شحلان، التراث العبري، ص. 31.

8- وهذا يدحض بعض الأحكام المتعصبة التي خرجت بها بعض الدراسات الاستشراقية الإسبانية التقليدية كدراسة.

خلاصة واستنتاجات

صفوة القول، تطرقنا في هذا الموضوع لمظهر من مظاهر التنوع والوحدة المميز للحضارة الإسلامية، ويتعلق الأمر بالعطاء العلمي لأهل الذمة بالأندلس في المجال الطبي تحديدا، بدءا بالتعرف على موقعهم في الخريطة الطبية للأندلس، ومرورا بتوزيعهم وبنياتهم ومجالات عطائهم، وانتهاء بالتعاون بينهم وبين المسلمين حكاما وحكماء. فما هي الإستنتاجات المستفادة من الموضوع؟

- أولا: ضعف نسبة أهل الذمة في الخريطة الطبية للأندلس على مستوى الكم، مع أهمية إسهامهم في العطاء الطبي على مستوى کیف.

- ثانيا: احتضان العصر الأموي بالأندلس لمعظم أطباء أهل الذمة، مع تركيزهم في العاصمة قرطبة.

- ثالثا: هيمنة اليهود على البنية الدينية لأطباء أهل الذمة، ويليهام المسيحيون.

- رابعا: تميز معظم الأطباء الذميين بخاصية الموسوعية العلمية، فكانت لهم مشاركة في علوم الأوائل، وعلوم اللسان، وعلوم الشريعة، غير أن النوع الأول هيمن على باقي الحقول العلمية.

- خامسا: خدمة أهل الذمة للطب عبر مجالات مختلفة؛ من التطبيب للحكام وللشعب، إلى الصيدلة والتأليف والترجمة.

- سادسا: تقدير المسلمين لأطباء أهل الذمة، بتقريب الحكام لهم للخدمة الطبية وإسناد مناصب سامية لهم، ويتعاون حكماء المسلمين معهم خدمة للطب مع الإشادة بمؤهلاتهم العلمية، وبكفاءاتهم المهنية، وبشيمهم الأخلاقية.

ملحق الجداول

الجدول رقم 1

عدد الأطباء الذميين والمسلمين في المصادر الثلاثة

الذميون	المسلمون	الانتماء الديني المصادر
03	20	طبقات ابن جليل
06	29	طبقات صاعد
13	73	طبقات ابن أبي أصيبعة
22	122	المجموع

الجدول رقم 2

عدد الأطباء الذميين والمسلمين بعد إزالة التكرار [!!!]

النسبة المئوية	عدد الأطباء	الانتماء الديني
82,1	73	المسلمون
17,9	16	أهل الذمة
100,00	89	المجموع

الجدول رقم 3

توزيع أطباء أهل الذمة على بعض فترات الحكم بالأندلس

النسبة المئوية	عدد الأطباء	فترة الحكم
68,75	11	الحكم الأموي
25,00	04	حكم الطوائف
06,25	01	حكم المرابطين
100,00	16	المجموع

الجدول رقم 4

التوزيع الجغرافي للأطباء الذميين بالأندلس

المدينة	عدد الأطباء	النسبة المئوية
قرطبة	10	62,6
سرقسطة	04	25,0
طليطلة	01	06,2
مجهولة	01	06,2
المجموع	16	100,00

الجدول رقم 5

البنية الدينية لأطباء أهل الذمة حسب المصادر الثلاثة

الانتماء الديني	طبقات ابن جلجل	طبقات صاعد	طبقات ابن أبي أصيبعة	المجموع
اليهود	03	06	05	14
المسيحيون	00	00	08	08

الجدول رقم 6

البنية الدينية لأطباء أهل الذمة بعد إزالة التكرار [!!!]

الانتماء الديني	عدد الأطباء	النسبة المئوية
اليهود	10	62,5
المسيحيون	06	37,5
المجموع	16	100,0

الجدول رقم 7

توزيع أطباء أهل الذمة على التخصصات العلمية مجملة

النسبة المئوية	عدد الأطباء	التخصصات المجملة
82,5	33	علوم الأوائل
10,0	04	علوم اللسان
07,5	03	علوم الشريعة
100,0	40	المجموع

الجدول رقم 8

توزيع أطباء أهل الذمة على التخصصات العلمية مفصلة

النسبة المئوية	عدد المنتمين	التخصصات مفصلة
40	16	الطب
17,5	07	الصيدلة
10	04	المنطق
05	02	علم اللسان العربي
05	02	علم اللسان العبري
05	02	الفلسفة
05	02	علم شريعة اليهود
02,5	01	التاريخ
02,5	01	الهندسة
02,5	01	النجوم
02,5	01	الموسيقى
02,5	01	علم الطبيعة
100,0	40	المجموع

الجدول رقم 9

مجالات العطاء العلمي للأطباء الذميين

النسبة المئوية	العدد	مجال العطاء
55,1	16	التطبيب
20,7	06	الصيدلة
20,7	06	التأليف
03,5	01	الترجمة
100,0	29	المجموع

ملحق أعلام الطب

لائحة بأسماء الأطباء الذميين في الأندلس حسب المصادر الثلاثة المعتمدة

ر.ت.	اسم الطبيب	المصدر
1	جواد الطبيب النصراني	طبقات ابن جليل، رقم 36.
2	خالد بن يزيد بن رومان النصراني	نفسه، رقم 38.
3	يزيد بن خالد بن رومان	طبقات ابن أبي أصيبعة: ج 3، 66.
4	ابن ملوكة النصراني	نفسه.
5	إسحاق الطبيب	نفسه، ج 3، 68. طبقات الأمم، 187.
6	يحيى بن إسحاق	طبقات ابن جليل، رقم 43.
7	مناحيم بن الفوال	طبقات ابن أبي أصيبعة: ج 3، 81.
8	مروان بن جناح	نفسه، ج 3، 81.
9	إسحاق بن قسطار	نفسه، ج 3، 81.
10	حسداي بن إسحاق	نفسه، ج 3، 82.
11	أبو الفضل حسداي بن يوسف	نفسه، ج 3، 82.
12	أبو جعفر يوسف بن حسداي	نفسه، ج 3، 82.
13	ابن بكلاش	نفسه، ج 3، 86-85.
14	عبد الله بن إسحاق الإسرائيلي	طبقات الأمم، 192.
15	سليمان بن يحيى ابن جبير	نفسه، 205.
16	يهودي أندلسي (لم يذكر اسمه)	طبقات ابن أبي أصيبعة، ج 3، 56.

